شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء النصرانية في عهد الدولة العباسية (تابع)

للاب لويس شيخو اليسوعي

٢٩ هبة الله ابن التلميذ

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ قال ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطبّاء (١ : ٢٥٩) : « هو الأجلّ موفّق الملك امين الدولة ابو الحسن هبة الله بن ابي العلاء » وفي تراجم الاعيان لابن خلكان ٢ : ٢٥٢ : بن ابي الغنائم) صاعد بن ابرهيم (وفي ابن خلكان : صاعد بن هبة الله بن ابرهيم بن عليّ) بن التلميذ . وقد لُقّب ايضاً بسلطان الحكماء كما روى عماد الدين الاصفهاني في الخريدة . وقال ابن ظافر الازديّ في بدائع البدائع (ص ٥٤) : « هو المعروف بابن التلميذ . وانّما امُّهُ من بنات التلميذ فعُرف بذلك » . وقال جمال الدين القفطي في تاريخ الحكماء (ص ٣٤٠) : « وابن التلميذ هو جدُّهُ لأُمّهِ والحكيم معتمد الملك ابو الفرج يحيى هو ابن بنتهِ فنُسب اليهِ » وقال ابن ابي اصيبعة عن والد هبة الله : « وكان ابو امين الدولة وهو ابو العلاء صاعد طبيباً فاضلاً مشهوراً » . وقال في محلّ آخر (١ : ٢٧٦) : « وكذلك كان لامين الدولة ابن التلميذ جماعة من الانساب كلٌّ منهم متعلّق بالفضائل والآداب » . وزاد على قولهِ فيهِ : « واكثر اهلهِ كتّاب » . وذكرهُ عمرو بن متى في اخبار فطاركة كرسيّ المشرق من كتاب المجدل (ص ١٠٣) ودعاهُ « بالطبيب الفياتي »

﴿زمانهُ ودينهُ﴾ كان اصل امين الدولة من بغداد . فيها كان مولدهُ نحو السنة ٤٧٤هـ (١٠٨١م) . قال ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٦٤) : « وكانت وفاة امين الدولة ببغداد في ٢٨ من شهر ربيع الاوّل سنة ٥٦٠ (شباط ١١٦٤) . اما عماد الاصفهاني فجعل وفاتهُ في صفر من تلك السنة . قال في خريدة القصر : « هلك ابن التلميذ

الطبيب النصراني بصفر سنة ٥٦٠ هـ وقد ناهز المئة وعاش الى زماننا ورأيتُهُ وهو شيخ . . . »

امّا دينهُ النصراني فلا يشكّ فيهِ احدٌ. قال ابن ابي اصيبعة : « ومات نصرانيًا » وقال عمرو بن متى في المجدل (ص ١٠٦) في ترجمة البطريرك ايشوعياب : « وفي ايامهِ توفي امين الدولة ابن التلميذ رضي الله عنهُ ودُفن في الصحن الداخلاني ببيعة العتيقة » . ويتّضح من ذلك انهُ كان نسطوريًا . وقال ابن الازرق الفارقيّ في تاريخهِ : « مات ابن التلميذ في عيد النصارى » . وقال جمال الدين القفطي : توفي وذهنهُ بحالهِ

﴿اخبارهُ﴾ قال ابن ابي اصيبعة : « كان ابن التلميذ في اوّل امرهِ قد سافر الى العجم وبقي بها في الخدَم سنين كثيرة ، ثمّ عاد الى بغداد . واما توفي يحيى بن التلميذ قام امين الدولة مقامهُ وهو ابن بنتهِ وخدم الخلفاء والملوك واتخذه الخليفة المقتفي بالله (٥٣٠ــ٥٥٥ هـ = ١١٣٦ــ١١٦٠ م) كطبيبهِ الخاصّ وجعل لهُ راتبًا بدار القوارير فقطعهُ الوزير عون الدين بن هبيرة ولم يعلم الخليفة بقطعهِ حتى اشار الى ذلك ابن التلميذ اشارةً لطيفة اذ قال لهُ الخليفة يومًا : قد كبرتَ يا حكيم . فاجابه : « نعم يا مولانا وتكسّرت قواريري » فادرك الخليفة بعد البحث سرّ جوابهِ وتقدّم برد راتبهِ بدار القوارير عليهِ وزادهُ اقطاعًا آخر (تاريخ الحكماء ص ١٤١) . وأُقيم ساعورًا اي رئيسًا على البيمارستان الكبير في بغداد المعروف بالبيمارستان العَضُدي المنسوب الى عضد الدولة ابن بويه الى حين وفاتهِ . وخدم ابنُ التلميذ بعد وفاة المقتفي ابنهُ المستنجد . قال ابن ابي اصيبعة (١ : ٣٦٢) : « كانت دار امين الدولة التي يسكنها في بغداد في سوق العطر مما يلي بابهُ المجاور لباب الغربة من دار الخلافة المعظّمة بالشرعة النازلة الى شاطئ دجلة »

﴿مقامهُ وعلومهُ وفضائلهُ﴾ قد اتّسع الكتبة في وصف هبة الله ابن التلميذ واطنبوا في فضلهِ . قال عماد الدين الاصبهاني في الخريدة :

« هو مقصدُ العالم في علم الطبّ بقراطُ عصرهِ وجالينوس زمانهِ خُتم بهِ هذا العلم ولم يكن في الماضين مَن بلغ مداهُ في الطبّ . عمّر ابن التلميذ طويلًا ، وعاش نبيلًا جليلًا ، ورأيتهُ وهو شيخ بهيّ المنظر حسن الرُّواء عذب المُجتلى والمُجتنى لطيف الروح ظريف الشخص بعيد الهمّة عالي الهمّة ذكيّ الخاطر مُصيب الفكر حازم الرأي شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم »

ونقل ابن خلكان (٢ : ٢٥٣) ما ورد عنهُ في كتاب نموذج الاعيان من شعراء الزمان فيمن أدرك بالسماع او بالعيان:

«كان ابن التلميذ متفنّناً في العلوم ذا رأي رصين، وعقل متين، طالت خدمتهُ للخلفاء والملوك، وكانت منادمتهُ احسن من التبر المسبوك، والدرّ في السلوك، اجتمعتُ بهِ مرارًا في آخر عمرهِ، وكنتُ أعجَب في امرهِ، كيف حُرم الإسلام مع كمال فهمهِ، وغزارة علمهِ وعلمهِ، والله يهدي من يشاء بفضله، ويُضلّ من يريد بحكمهِ، وكان اذا ترسّل استطال وسطًا، وان نظم وقع بين ارباب النظم وسطًا»

ونقل ابن ابي اصيبعة عن موفّق الدين البغدادي في هبة الله ابن التلميذ ما يدلّ على مروءتهِ ونزاهتهِ وعظم نفسهِ قال:

«كان ابن التلميذ حسن العشرة كريم الاخلاق عنده سخاء ومروّة واعمال في الطب مشهورة وحدوس صائبة... قال ومن مروّتهِ انّ كلّ من دارهِ كان يلي المدرسة النظاميّة فاذا مرض فقيهٌ نقلهُ اليهِ وقام في مرضهِ عليهِ. فاذا أبلّ وهب لهُ دينارين فصرفهُ»

ومما حكاهُ عبد اللطيف عن امين الدولة وكأنّهُ قد تجاوز في هذه الحكاية قال:

«وكأن ابن الدولة لا يقبل عطيّةً الّا من خليفة او سلطان فعرض لبعض الملوك النائبة دارهُ مرضٌ مزمن فقيل لهُ: ليس لك الّا ابن التلميذ وهو لا يقصد احدًا. فقال: انا اتوجّه اليهِ. فلما وصل أفرَدَ لهُ ولنلمانهِ دورًا وأفاض عليهِ من الجرايات قدر الكفاية ولبثَ مدّةً. فجرى الملك وتوجّه الى بلادهِ وارسل اليهِ مع بعض التجّار اربعة آلاف درهم واربعة ثوب ثابي واربعة مماليك واربعة افراس. فامتنع من قبولها وقال: انّ عليّ يمينًا ان لا اقبل من احد شيئًا. فقال التاجر: هذا قدرٌ كبير. فقال: «انا لمْ حلفتُ لم أستثنِ». واقام شهرًا يرادهُ وهو لا يزداد الّا اباء وتأيًا. فقال لهُ عند الوداع: ها انا سافر ولا ارجع الى صاحبي واقتّع بالمال فتُقلّد منّتهُ وتفرتك منفعتهُ ولا يعلم احدٌ انك ردَدتهُ. فقال: ألستُ اعلم في نفسي انّي لم أقبلهُ فنفسي تشرُف بذلك عَلِمَ الناس او جهلوا»

وكان ابن التلميذ مع سموّ فضلهِ حسن السَّمت وافر الوقار كثير التواضع. وجرى لهُ مناقشات مع احد حكماء زمانهِ ابي البركات هبة الله بن علي بن ملكا وكان يهوديًا فأسلم وكان معروفًا بالصَّلف والكبرياء على خلاف ابن التلميذ فقال البديع الاسطرلابي فيها:

ابو الحسن الطبيبُ ومثنيهِ ابو البركات في طرَفَيْ نقيض
فذاك من التواضُع في الثريا وهذا بالتكبُّر في الحضيض

ووصف ابو سعيد بن ابي سهل البغدادي ابن التلميذ فقال:

« رأيتُ امين الدولة ابن التلميذ فاجتمعتُ بهِ وكان شيخاً رَبْعَ القامة عريض اللحية حلوَ الشمائل كثير النادرة (قال) وكان يحبُّ صناعة الموسيقى وكان يميل الى اهلها »

ولهُ اخبار كثيرة تدلُّ على براعتهِ في الطبّ وروياناها سابقاً (١

﴿آدابهُ وتآليفهُ﴾ ذكر شهاب الدين العمري سعة معارف ابن التلميذ في كتاب مسالك الابصار في اخبار ملوك الامصار (نسخة المكتبة الخديويّة ص ٣٣٦) قال في طبقات الاطباء:

« ومنهم امين الدولة ابن التلميذ فَرْد زمانهِ، وندُّ (وفذّ ؟) أقرانهِ، بلغ بعلمهِ مبالغ الأشراف، ووصل في فهمهِ حدَّ الإشراف. وكان يتكلَّم في مجالس الخلفاء منبسطاً، يتقدَّم في مجال السؤال للضعفاء متوسّطاً، لسابقة خدمهِ، وباسقة صُنعهِ في بيت الإمامة دون باقي خدَمهِ، ولم تجلّت بهِ شيمتُهُ من مآثر، وحلّت بأديبهِ مما لا يقدر عليهِ مكاثر، حتى كان يناظر جلّة الفقهاء، وجملة اهل العلم سوى السفهاء. ويفرّس الادباء، ويفرش لواطئهِ الاطبّاء، ويضرب بقلمهِ عصا ابن البوّاب، ويُطرف طَرَفٌ طرسهِ مُقلة ابن مُقلة بفاضل الجلباب، وهو على دينهِ المخالف يكرهُ الصدور، ويجره جرَّة (كذا) البدور »

قال ابن ابي اصيبعة (١: ٢٥٩): « كان ابن التلميذ جيّد الكتابة يكتبُ خطّاً منسوباً وقد رأيتُ كثيراً من خطّهِ وهو في غاية الحسن والصحّة وكان خبيراً باللسان السرياني والفارسي متبحّراً في اللغة العربية... وكان يترسّل ولهُ ترسُّل كثير جيّد وقد رأيت لهُ من ذلك مجلّداً يحتوي على انشاء ومراسلات...» ثم ذكر (ص ٢٧٦) عدَّة تآليف صنّفها في الطبّ لا يزال بعضها في خزائن المكاتب الشرقيّة كاقرابادينهِ ورسالتهِ في الفصد والاقناع والمقرّبات. وقد وجدنا لهُ في مكتبة الكلدان في دياربكر سنة ١٨٩٥ رسالة لطيفة في اثبات عقائد الدين المسيحي سنعود اليها ان شاء الله. ولهُ الرسالة الأمينيّة كتبها الى ولدهِ وكان يُعرَف برضى الدولة ابي نصر قال فيه ابن ابي اصيبعة (١: ٢٦٠): « ولم يكن مدركاً لصناعة الطب وكان في سائر احوالهِ بعيداً عمّا

١) اطلب المشرق ٩[١٩٠٦]: ٧٨١

كان عليهِ والدهُ، وقال (ص ٢٦٤) :

« خلّف ابن التلميذ نعماً كثيرة واموالاً جزيلة وكتباً لا نظير لها في الجودة فورث جميع ذلك ولدهُ وبقي مدّةً ثم انهُ خُنق في دهليز دارهِ وأُخذ مالهُ ونُقلت كتبهُ على اثني عشر جملاً الى دار المجد بن الصاحب وكان ابن امين الدولة قد اسلم قبل موته »

﴿شعرهُ﴾ قال ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٥٩) : « ولابن التلميذ شعر مستظرف حسن المعاني إلّا انهُ اكثر ما يوجد لهُ البيتان او الثلثة وانما القصائد فلم اجد لهُ منها الّا القليل » . وقد نظمهُ العماد الاصبهاني في كتابهِ خريدة القصر في جملة الشعراء وقال عنهُ : « كان من اكبر كتّاب النصارى لهُ ابيات افراد كلُّها فرائد وكلمات وافية رائقة ، شافية شائقة » وذكرهُ صاحب كتاب اخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء (Ms Leid, p. 427) فوصف نظمهُ بقولهِ : « ان شعرهُ كثير المُلَح » ودونك بعض ما وقفنا عليهِ من ذلك نفصّلهُ ابواباً

﴿ لهُ في المديح ﴾ ما كتب بهِ في صدر رسالة الى جمال الدين ابي الفتح بن الفضل ابن صاعد جواباً (من الكامل) :

ما نَشْرُ أنفاسِ الرياضِ مريضةً ... عوّادها ظِلُّ النَّدى ورقطارُ
كفلَتْ بثَرْوتها مؤبّدةً بها ... وكفى صداها جدولٌ مِدرارُ
بكَتِ السماءُ فأضحكتْها مثلَ ما ... أضحكُ فتضحكُ بي الغداةَ نَوَارُ
واذا تُعارضها ذكاءُ تشعشعتْ ... فتمازَجَ النَّوّارُ والنُّوّارُ
مشتِ الصبا بفروعها مختالةً ... فصبا الكَشوق وغيرُهُ أستعبارُ
واذا تغنّى الطيرُ في ارجائها ... أبدى بلابلَ صدرِها التَّذكارُ
يوماً بأطيبَ من جِوارِكَ شاهداً ... او غائباً تَدنو بك الاخبارُ

وكتب الى الوزير سعد الملك نصير الدين (من البسيط) :

لا زال جَدُّكَ بالاقبالِ موصولا ... وجَدُّ ضِدِّكَ بالاذلالِ مَفلولا

ولا عَدِمْتَ من الرحمانِ مَوْهبةً تُعيد رَبْعَك بالعافين مأهولا
فنعمَ مُنْطلِقُ الكفَّين انت اذا أضحى اللئيمُ عن المعروف مغلولا
تجودُ بالمال لم تأل يداهُ وإن تُسأل فصاحتُهُ بَذَّ الورى قِيلا
لا يستريحُ الى العِلّات معتذرًا اذا الضَّنينُ رأى للبُخل تأويلا
يبادر الجودَ سبقاً للسؤال يرى تعجيلَهُ بعد بَذْل الوجه تأجيلا
لاغرو ان كُسِفَت شمسُ الضُّحى وبدت فأكثرَ الناسُ تقبيحًا وتهليلا
فأنت سيفُ غياث الدين أغمَدَهُ صَوْناً وعاد على الاعداء مسلولا
فما يليق بغير السَّعْد مُسنَدُهُ وإن أعاروهُ إعظاماً وتبجيلا
فاسلَم على الدهر في نَعْماء صافيةٍ من النوائب مرهوناً ومأمولا

ومن ظريف قولهِ في شريف كان يتواضع (من الطويل):

تواضَعَ كالبَدْر استنارَ لناظِرٍ على صَفَحات الماء وهو رفيعُ
ومَنْ دونَهُ يسمو الى المجد صاعدًا سموَّ دخانِ النار وهو وَضيعُ

وقال يمدح موفَّق الدين ابا طاهر الحسين بن محمَّد. وكان ابن التلميذ دخل مدينة سارة واشتغل في خزانة كتبها التي اوقفها موفَّق الدين على المدينة (من المنسرح):

وُفِّقتَ للخير اذ عَمَمتَ بهِ طُلَّابَهُ يا موفَّق الدينِ
أزلفتَ للناس جَنَّةً جمعَتْ عيونَ فضلٍ أشهى من العينِ
فيها ثمارُ العقولِ دانيةٌ قُطوفُها حُلوةُ الأفانينِ
لا زلتَ تسمو بكلِّ صالحةٍ بمُسعِدَيْ قدرةٍ وتمكينِ
ويرحمُ اللهُ كلَّ مستمعٍ مُشيِّعٍ دعوتي بتأمينِ

وله ﴿في الشكر والتهاني والهدايا﴾ قال يشكر مستوفي الممالك العزيز ابا نصر ابن حامد (من الطويل) :

لَعَمْرُ ابيك الخير ليس بواحدٍ من الناس إلّا حامداً لابن حامد
كأنّهمُ دانوا الإلهَ بشكرهم عُلاهُ ولكن لاكشكرِ ابنِ صاعدِ
همُ خبّروا عنهُ فأثنوا بصالحٍ وعندي بما أثنيتُ خيرَ المشاهدِ

ومن تهانئه يهنئ بخلعة (من الوافر) :

لئن شرُفتْ مناسبُها وجلّتْ لقد زُفّتْ الى كُفءٍ شريفِ
الى من زانها وأزدان منها كسالفةِ المليحة والشُنوفِ

واهدى الوزيرَ ابن صَدَقة كتاب المحاضرات للراغب وكتب معهُ (من الكامل) :

لمّا تعذّر ان اكونَ ملازماً لجنابِ مولانا الوزير الصاحبِ
ورغبتُ في ذكري بحضرة مجدهِ أذكرتُهُ بمحاضرات الراغبِ

وكان ابو القاسم بن الفضل عتب على ابن التلميذ في امرٍ فاجابهُ خالعاً عليهِ قميصاً معتماً اسود وكان السواد من اعلام الدولة العبّاسيّة (من الطويل) :

أتيتَ في السوداء تسحبُ ذيلَها خطيباً ولكن لا بذكر مثالبي

وقال ايضاً يسترضيهِ (من الطويل) :

اتاني كتابٌ لم يَزِدْني بصيرةً بسؤددٍ مُهديها اليَّ وفضلهِ
فقلتُ وقد أخجلتني بابتدائهِ أبى الفضلُ إلّا ان يكون لاهلهِ

وله ﴿في الرثاء﴾ قال في رئيس مات في يوم مطير (من الكامل) :

كم ذا الوقوفُ على غُرورِ أمانيِ أأخذتَ من دنياكَ عِقْدَ أمانِ
هل عيشةٌ بعد الرضا مَرْضيّةٌ كلّا ولو كانت خلودَ جِنانِ
انّ السماءَ بفقدهِ لحزينةٌ فرياحُها نَفَسُ الكئيبِ العاني
الغيثُ أدمعُها وما برقَتْ به نارُ الجوى والرّعدُ للإرنانِ (١
لو ذاق فَقْدَكَ مَنْ يلومُ على البكا لَزَرى على التّسيم (٢ والسُّلوانِ
تبكوكَ اذ صلّوا عليكَ ولم تزلْ كالنّجم تُهديها بكلّ مكانِ
لا يبعدَنْكَ وما البعيدُ بمن نأى حيًّا ولكنَّ البعيدَ الدانِي

وقال يرثي صاحب الحلّة الامير سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس لمّا قُتل سنة ٥٠١ه (١١٠٧م) في واقعة كانت بينهُ وبين عسكر السلطان محمّد شاه. وكان هذا الامير على ما وصفهُ ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (ed. Popper, vol. 2 p.351) كريماً عفيفاً عن الفواحش وكانت دارهُ ببغداد حَرَماً للخائفين ولم يتزوّج غير امرأة واحدة وكانت سيرتهُ مشكورة وخصائلهُ محمودة ان سلم من مذهب اهل الحلّة فان اباهُ كان من كبار الرافضة. وهذا رثاء امين الدولة فيه (من الطويل):

لِيَبْكِ ابنَ منصورٍ عُفاةُ نوالهِ اذا عصفَتْ بالريحِ نَكباءُ حرجفُ
ويذكرُهم مَنْ ردَّهم بعبوسهِ فتًى كان يلقاهم ببشرٍ ويُسعِفُ
ولمّا سَما فوق السماءِ بهمّةٍ (٣ يفضُّ لها طَرْفُ الخسودِ ويُطرِفُ
رمَتْهُ الليالي بل رمَتْها برُزْئهِ كبدرِ الدُّجى في ليلةِ التّمِّ يُخسَفُ
عليكَ سلامٌ لا تزالُ قلوبنا على حَزَنٍ ما هَبَّتِ النّبُ (٤ توقفُ
ولا برِحَتْ عينُ السّماءِ بوَبْلها على جَدَثٍ واراكَ تَهمي وتَذرِفُ

(له بقيّة)

١) ويروى: للاحزانِ ٣) ويروى: على التبسم
٣) ويروى: رقا وسما فوق السماء بهمّةٍ ٤) ويروى: النبتُ